المجتمع العربي وإشكالية التأسيس الثقافي والحضاري من الجاهلية إلى العصر العباسي

عبد المالك ضيف.

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

تتشكل المجتمعات والأمم وفق كيفيات الاجتماع وقوانينه، وتتحدد الخصائص من خلال تنامي شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتحكم في النسيج العام. وتبدأ هذه العلاقات في تجسيد وإعطاء الصورة العامة لمختلف الترابطات والأمشاج التي تتدخل هي الأخرى في تكريس وترسيخ بذور بقائه أو فنائه. ولعل الدارس لهذه المسألة، يكون لزاما عليه، بادىء ذي بدء، أن يبحث عن نواة التشكيل الاجتماعي التي انحدر منها أصل المجتمع، ثم بعد ذلك، الدورات الاجتماعية الممكنة والمهمة التي مر بها حتى اكتملت ملامحه، وتمايز عن غيره من باقي المجتمعات البشرية.

لقد اختلف الدارسون في تقسيم أهل العالم، بما يحتويه من شعوب ومناطق جغرافية، وطبائع بشرية متمايزة من جنس إلى آخر – فوفق ما يرى الشهرستاني- في كتابه (الملل والنحل)؛ نجد من بين التقسيمات التي يوردها، أن هناك من اعتمد هذا الأمر بحسب الأمم، فقال بأن " كبار الأمم الأربعة: العرب والعجم والروم والهند، ثم زاوج بين أمة وأمة فذكر أن(العرب والهند) يتقاربان على مذهب واحد، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكام

الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية (والروم والعجم) يتقاربان على مذهب واحد، وأكثر ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات، واستعمال الأمور الجسمانية.[1].

لقد استوطن العرب شبه الجزيرة العربية، وتفرعوا ثلاث طبقات وهي: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة. " ويروي معاوية بن صالح عن يحي عن سعيد بن المسيب، قال: ولد نوح ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث. فولد سام العرب وفارس والروم. وولد حام السودان والبربر والنبط. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج." [2].

إن البحث عن الأصول الأولى للعرب، هو خوض في غمار الجذور الإنسانية الأولى؛ لأن العرب أمة ممتدة في التاريخ، ودليل رساختهم هو وجود ما يعرف بالقبائل البائدة التي ذكرها لنا القرآن مثل عاد وثمود، مصداقا لقوله تعالى: "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود"[3].

والأساس في المجتمع العربي يكمن في الفئة التي أحاطت بالحرم المكي والذي كان يعتبر عندهم قديما المكان المقدس المتنازع عليه، والذي به تتشكل السيادة؛ لذلك كانت كل قبيلة تتمسك بجانب سلوكي يجعلها حاضرة في خضم الحوادث.وقد تعددت الحكايات التي تروي بناء هذا البيت؛ فقد " قيل: إن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض وقع إلى سرنديب من أرض الهند،

---

(1) الشهرستاني: الملل والنحل، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد.ج1.دار الكتب العلمية.دت.ص4.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد. شرح و ضبط: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري.ج3.دار الكتاب العربي.بيروت1983. ص: 312.

(3) سورة فصلت الآية: 13.

وكان يتردد في الأرض متحيرا بين فقدان زوجته ووجدان توبته، حتى وافى حواء بجبل الرحمة من عرفات وعرفها، وصار إلى أرض مكة، ودعا وتضـــرَّع إلى الله حتى يأذن له في بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته..."[1].ثم يأتي الطوفان في زمن نوح – عليه السلام – وتنتهي النبوة إلى إبراهيم الخليل- عليه السلام –وحمله هاجرا إلى الموضع المبارك وولادة إسماعيل –عليه السلام- وبناء البيت وذلك لقوله تعالى: " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البـــيت وإسماعيل "[2]. و"كانت قريش تُدعى النضر بن كنانة، وكانوا متفرقين في بني كنانة، فجمعهم قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك من كل أوب إلى البيت، فسموا قريشا. والتقرُّش: التجمع، وسمي قصي بن كلاب مجمعا، فقال فيه الشاعر:

قصيّ أبوكم كان يدعى مُجمّعا به جمَّع الله القبائل من فهر" [3]

ولقد اشتهرت الأمة العربية بمكارم رسخت في جاهليتها ووصلها الإسلام و لم يقطعها، وهي " السقاية والعمارة والعُقاب والرّفادة* والسّدانة والحجابة والنّدوة** واللواء والمشورة والأشناق*** والقبة والأعنة والسّفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجَّرة **** ".[4]. وهذه المكارم تحولت إلى شبه

---

(1) الشهرستاني:الملل والنحل. ص:645-646.

(2) المرجع نفسه. ص: 647.

(3) ابن عبد ربه:العقد الفريد. شرح و ضبط: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري ج3. دار الكتاب العربي. بيروت 1983 ص: 312.

(4) المرجع نفسه. ص314

(*) وهي ماكانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج. ص:314.

(**) الندوة في بني عبد الدار. ومن بني أسد يزيد بن زمعة ورؤساء العرب لا يجتمعون على أمـــر حتى يعرضوه عليه.

امتياز؛ وكل قبـــيلة تتباهى بهذا الأمر وتجـــعله حكرا عليها؛ و تتشرف به. فكانت قريشا مجســـدة في " عشرة رهْط من عشرة أبطن وهم: هاشم

وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيْم ومخزوم وعديّ وجُمَح وسهْم."[1].

وهذه الأسماء كرست سلوكها الذي أصبح الشرف المكين به تتزين، وتتفاخر، وتثبت وجودها من خلاله؛ فكان كل اسم من هؤلاء يمثل كتلة سياسية بالتعبير المعاصر تسطر برنامجها وتسعى إلى تفعيله، دون أن تتدخل في تسيرها أية شخصية أخرى." فكان من هاشم: العباس بن عبد المطلب، يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام؛ ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب؛ كانت عنده العُقاب راية قريش، ...ومن بني نوفل: الحارث بن عامر، وكانت إليه الرفادة...ومن بني عبد الدار: عثمان بن طلحة، كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، ويقال: والندوة أيضا في بني عبد الدار؛ ومن بني أسد: يزيد بن زمعة بن الأسود، وكان إليه المشورة،...ومن بني تيم: أبو بكر الصديق، وكانت إليه في الجاهلية الأشناق،...ومن بني مخزوم: خالد بن الوليد، كانت إليه القُبَّة والأعنة،...ومن بني عديّ: عمر بن الخطاب، وكانت إليه السفارة في الجاهلية،...ومن بني جمح: صفوان بن أمية، وكانت إليه الأيسار،...ومن بني سهم: الحارث بن قيس، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجَّرة التي سموها لآلهتهم."[2].

(***) الأشناق هي الديات والمغرم. ص:314.

(****) هي الأموال التي سموها لآلهتهم. ص: 314.

[1] ابن عبد ربه: العقد الفريد. ج3 ص:313.

[2] المرجع نفسه.ص: 314/313.

إن قريشا كانت أفصح القبائل العربية على الرغم من أنها لم تكن من الأصل العربي أو من العرب العاربة بل من القبائل المستعربة. وذُكر أن " الأصمعي قال: قال معاوية: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجل من السّماط: يا أمير المؤمنين،قوم ارتفعوا عن رُتّة العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن

شنشنة تغلب، ليست فيهم غمغمة قُضاعة، ولا طُمطمانيّة حمير؛ قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين؛ قال: صدقت؛ قال: فممن أنت؟قال: من جرْم.قال الأصمعي: وجرم فُصحى العرب."[1].

أما المجتمع العربي في الجاهلية فكان خاضعا لنظام الجماعة وهي التي يتبلور كيانها في الأنماط التالية، حسب ما: " قال ابن الكلبي: الشعب أكبر من القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيلة. وقال غيره: الشعوب العجم والقبائل العرب، وإنما قيل للقبيلة قبيلة لتقابلها وتناظرها، وأن بعضها يكافىء بعضا. وقيل للشعب شعبا لأنه انشعب منه أكثر مما انشعب من القبيلة، وقيل لها عمائر، من الاعتمار والاجتماع، وقيل لها بطون، لأنها دون القبائل، وقيل لها أفخاذ، لأنها دون البطون، ثم العشيرة، وهي رهط الرجل، ثم الفصيلة، وهي أهل بيت الرجل خاصة."[2] .

وكانت العرب أمة تستلهم أمجادها من خلال تكريس مبادىء البطولة والتشرب من ينابيع الأنفة والشهامة والمروءة؛ لذلك كان الإنسان العربي في الجاهلية يتباهى بنقاء الثوب وبسخاء اليد وشموخ الهمة وقوة السيف. كما أن العرب كانت أمة لسانية تمتلك من الفصاحة والبيان ما أهلها إلى أن

---

[1] ابن عبد ربه: العقد الفريد.ج3.ص:321/320.

[2] المرجع نفسه.ص:335.

تفتخر وتتباهى بالشعر والكهانة والخطابة، وكانت لهم العناية بتناقل الأخبار، كما أنهم أمة متحررة لا تؤمن بالقيود؛ لذلك تراهم متنقلين مغامرين لا يأنسون بالمقام.وهم أمة الفت الحروب والمشاحنات، فكانت لا تخمد حرب إلا اندلعت

حرب أخرى وما داحس والغبراء، وحرب البسوس إلا دليل على ذلك. وظلت كذلك حتى جاء الإسلام؛ وارتفعت راياته، ودخل فيه الناس أفواجا.واجتمع شمل الأمة على كلمة التوحيد. فكان أمر الناس شورى، وكان الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – بالمؤمنين رؤوفا رحيما، يعطف على كبيرهم ويرحم أوسطهم ويتحنن على صغيرهم... فنقل المجتمع من التشرذم إلى الائتلاف، ومن النزاعات والحروب إلى التآلف والتآخي...وقد سعى الرسول (ص) إلى تأسيس المجتمع المدني الذي يقوم على التكامل بين الرئيس والمرؤوس، من خلال الإحساس بالمسؤولية لقوله: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". كما أن الإسلام أراد أن يحول اهتمام الناس إلى الاهتمام بالفكرة دون تقديس الشخص، ودون ربط المصير بالشخص، حتى يزول معه اعتقاد إذا انقضى أمره ذهب العز معه.إن الإسلام جعل النعمة ممتدة لا تنقضي بانقضاء حياة الرسول (ص) لذلك أراد الله عز وجل في محكم تنزيله أن يبين لنا أن دور نبيه الكريم انتهى بإتمام النعمة، قال تعالى:" اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا."[1].وهكذا يتبلور مفهوم الخلافة في الإسلام، " والخلافة هي النيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وتنفيذ أحكامه وسياسة الدنيا به. والسر في ذلك حياة أفراد النوع الإنساني منفردين

[1] سورة المائدة.الآية 3.

ولأن من طبيعة الاجتماع التنافس المفضي إلى التنازع لازدحام الأغراض المتباينة فيحتاج إلى الوازع وهو الشرع."[1].

وتتوسع الفتوحات مع الخلفاء الراشدين، وتتوسع جغرافية المسلمين، وتتسع لمختلف الأجناس والشعوب، فتمتزج الثقافات وتتنوع العادات وتنصهر

المعارف بعضها مع بعض، ويزحف على الأمة من كان يعيش في الوعر من الأرض من المحيط إلى الخليج؛ تركوا ملوكهم وقياصرهم وأكاسرهم...والتفوا حول أمة هي أبعد الأمم عن سياسة الملك- كما يرى ابن خلدون ص 140-

" والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالا في القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش؛ فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش؛ ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة، فكان مضطرا إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم، لئلا يختل عليه شأن عصبيته، فيكون فيها هلاكه وهلاكهم. وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر وإلا لم تستقم سياسته."[2].

وعلى اعتبار أن أمة العرب كانت محكومة بالتعصب، والمغالبة جعل أهواءهم شتى، ووحدتهم فرقة. ولما جاء الإسلام خاطب عقل الإنسان وروحه، وحرر نفسه من براثن العبودية؛ فراحت النفس متوثبة منطلقة، تبحث عن

---

[1] عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون.المكتبة العصرية.بيروت2001. ص: 9.

[2] ابن خلدون: المقدمة.تحقيق: درويش جويدي.ط2. المكتبة العصرية. بيروت 2000.ص: 140

الأفضل دائما، وكلما امتد الإيمان في القلوب اشتدت رغبة التأسيس والبناء؛ ولما كان السبب في جاهلية العرب يكمن في طبيعة وجودهم في بيئة شظفة وخشنة العيش " والسبب في ذلك لخُلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم.". ولعل اللحمة التي يمكنها أن تشد بينهم وتجعلهم جسدا واحدا هي لحمة الدين والنبوة والولاية " فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خُلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المُذْهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس. فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك."[1]. وباستطاعتنا تبين النمط المعيشي بصورة أوضـــــح في المجتمع الجاهلي الذي غلبت فيه سجية الانتفاع المؤقت الذي ينتهي بانتهاء الفائدة الفورية فكان الإنسان الجاهلي ينهب غيره من بني جنسه بأخذ ما في يده دون وازع أو رادع. فلا يتحقق الملك ولا تكون سياسته " وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم، وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه. واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا، وتتابع فيها الخلفاء، عظُم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم. كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمر كبدي، يعلم الكلاب

---

[1] ابن خلدون: المقدمة. ص: 140.

الآداب"[1]. وفي مقابل طرح ابن خلدون الذي يرى أن العرب كان أمرها شتى يرى الدكتور عمر موسى باشا أن العرب أمة موحَّدة؛ لـــ "أن طبيعة العرب المشتركة، وحياتهم القبلية، ولغتهم الواحدة تحتم هذه الوحدة التي وُجدت بوجودهم أصلا، فلم تفرقهم الأحداث والأهواء والعصبيات القبلية، وإنما كانت توحدهم وتجمع شتاتهم؛ لأنهم كانوا أباة يأنفون أن يتسلط عليهم أمير مستبد أو ملك جبار." [2].. ويعطي مثالا على ذلك بقصة أبي فارس النعمان بن المنذر الذي رفض الانصياع لملك الفرس بتزويج بناته من الأمـــراء من أبناء كسرى، وفضل السجن والهوان والتعذيب والرمي به تحت أرجل الفيلة.[3]. واتحد العرب بعد ذلك في معركة ذي قار الشهيرة. وتتضح المعالم العربية في الوحدة مع الخنساء التي فقدت أخاها في الجاهلية فبكت عليه حتى ابيضت عيناها. ولكن تغير موقفها بعد الإسلام إذ هلك أبناؤها الأربعة في القادسية فحمدت الله الذي شرفها باستشهادهم[4] .

إن هناك إطارا اجتماعيا ما يؤدي بالضرورة إلى إنشاء نمط حضاري ما وتشكيل اجتماعي ما، فهناك فرق جوهري بين المجتمع البدائي أو الطبيعي وهو الذي لا يبدل المعالم والمقومات التي تحدد شخصيته منذ وجد. والمجتمع التاريخي وهو المجتمع الذي يتحول ويتعدل من بعد، من مثل القبيلة العربية في العصر الجاهلي[5]. ونقطة البداية لدى كل مجتمع هي فعل الانطلاق نحو غرض

---

[1] المرجع نفسه.ص:141.

[2] عمر موسى باشا: من الوجود العربي.دار المعارف للطباعة والنشر. تونس.دت. ص: 39.

[3] عمر موسى باشا: من الوجود العربي.ص: 39.

[4] المرجع نفسه. ص: 42.

[5] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع. ترجمة: عبد الصبور شاهين. ط3. دار الفكر(الجزائر).ودارالفكر(دمشق) 1986.ص:9.

اجتماعي معين يسعى من خلاله إلى إنشاء واقع عملي يؤسس شبكة علائقية متراصة وقادرة على النمو والتبلور. ومن ثم تكتمل الصورة " ومع ذلك فان هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة قد تبدأ بفرد واحد، يمثل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد، وذلك بلا شك هو المعنى المقصود من كلمة (أمة)، عندما يطلقها القرآن الكريم على إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:" إن إبراهيم كان أمة" [النمل: 120/16] ففي هذه الحالة نجد أن المجتمع (الأمة) يتلخص في (إنسان واحد)، أي أنه يتلخص في مجرد احتمال حدوث تغيير في المستقبل، مازال في حيز القوة، تحمل فكرة يمثلها هذا(الإنسان)." [1]. والفكرة تحتاج إلى إطارها الزماني والمكاني الذي يستطيع استيعاب ما تحدثه من أثر هو عبارة عن فعل ملموس، أو نتيجة مادية. " ومن هذا الوجه يصبح المجتمع هو: الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير."[2].

وصياغة شبكة العلاقات الاجتماعية هو أساس لا بد من توافره لدى تشكل مجتمع معين " ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمهاجرين. وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي، لا لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي، أي مع تكوين شبكة علاقاته الاجتماعية، حتى قبل أن تتكون تكونا واضحا عوالمه الاجتماعية الثلاثة."[3]. واستمر الزمن الإسلامي مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم –

---

[1] المرجع نفسه.ص: 17.

[2] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع. ص:17.

[3] المرجع نفسه. ص: 28.

مليئا بالفعل التأسيسي المترع بالخصوبة، وبكل ألوان الحياة، حتى وصل به الأمر إلى الوفاة ومفارقة الدنيا، ولكن بعد أن عهد إلى الناس أمر نشر الدين والمحافظة عليه؛ فقال لهم في حجة الوداع:" أيها الناس ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد."[1].ومات الرسول الكريم، وعم الأسى النفوس " وعظُم الخطب وجل الأمر وأصيب المسلمون بنبيهم وأنكر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – ذلك وقال: إنه لم يمت، وإنه سيعود كما عاد موسى لقومه، وماج الناس وجاء الصديق المؤيد المنصور–رضي الله عنه – أولا وآخرا وظاهرا وباطنا فأقام الأود، وصدع بالحق وخطب الناس وتلا عليهم: " وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين " [الآية144 آل عمران] وكأن الناس لم يسمعوها قبل ذلك فما من أحد إلا يتلوها."[2] .وسوف يضيق بنا المقام لو ذهبنا نسرد معضلة البيعة بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، ولكننا نقول: " نظر المجتمعون في السقيفة فلم يجدوا من السابقين الأولين من المهاجرين الحاضرين بالسقيفة من هو أحق بها سوى أبي بكر، لأنه رفيق رسول الله– صلى الله عليه وسلم– في الغار وصديقه، وقد قدمه رسول الله للصلاة بأصحابه وهي من أهم المناصب وأغلاها قيمة."[3]. وبدأت معالم الخلافة تتوضَّح عند المسلمين؛ إنها الخلافة التي

---

[1] الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق: درويش جويدي.ج2. المكتبة العصرية. بيروت 2001. ص: 252/251.

[2] ابن خلدون: المقدمة. ص: 178.

[3] ابن كثير: فصول من السيرة. تحقيق: محمد العيد الخطراوي–محي الدين مستو.ط1.مؤسسة علوم القرآن، دار القلم. بيروت 1399هـ.ص:197.

لا تسلّط عنوة وإنما تُرغّب أولا، ويشارك فيها حتى أبسط الناس، ولا يكون مرجعها: كابر عن كابر.فالخلافة هي: " حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به."[1].

وجاء الخلفاء وعقدت الألوية، وكانت كل مرحلة في الخلافة الراشدية تتميز عن سابقتها، ولكنها كانت تتشرب من نبع حضاري واحد وإن أُختلف في طريقة الأداء، فكانت مرحلة أبي بكر الصديق هي تثبيت معالم الدين من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة وأن أمر الردة قد استفحل في الناس وظهر المتنبئون وانتصر الخليفة الصديق بفضل قوة إيمان جنده. و " لا شك أن الإسلام قد بدّل أحوال العرب وأنشأهم خلقا جديدا، وغير ما كانوا عليه من الأخلاق وبدّلهم منها أخلاقا لا تلتئم مع الانكماش والانزواء. كانوا قبائل متنافرة، وبطونا متدابرة، يضرب بعضهم رقاب بعض، لا يبيت أحدهم إلا على حذر ممن بعُدت به العصبية من بني عمه وذوي قرابته."[2]. وقوي سيف المسلمين في عهد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- وفتح بلاد فارس وبلاد الروم. ثم جاء عثمان-رضي الله عنه- وأكمل فتوح بلاد فارس، وامتد توسعه إلى بلاد المغرب، ففتحت على يديه إفريقية والجزائر والمغرب الأقصى، وكانت خلافته بؤرة الفتنة التي عصفت بالأمة الإسلامية. وجاء علي-رضي الله عنه- وازدادت بؤر التوتر وقويت ينابيع الشر، واشتد أوار الفتنة أكثر.

---

[1] عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون. ص: 17.

[2] عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون. ص:55.

إننا نبحث من خلال إعطاء مثل هذه التفاصيل عن طبيعة الفعل العربي، وعن ماهية الحركة التي يسير وفقها، وهل حدث التشبع بالمعنى القرآني إلى درجة يمكن معها حدوث الاستشراف المعرفي، وتنامي البنية الثقافية المكتنزة بالرؤى ومختلف التصورات التي تستجلي الميدان، وتتطلع إلى البناء من بعد الهدم إذا كانت الضرورة تقتضي ذلك؟ بمعنى هل فعل الفتوحات فعل هدم أم فعل بناء؟ إن الفعل تجسيد للفكرة، وهذه الأخيرة عبارة عن انعكاس عقلي. لقد كرَّس القرآن الكريم مبدأ الانسجام والتكامل بين مختلف الأجزاء المشكلة للكون؛ فالروح والجسم شيئان متكاملان، والليل والنهار متعاقبان، والشروق والغروب، والسماء والأرض...و كل بحسبان. ولعل العقل العربي توصل إلى هذا الاقتناع بأن القرآن الكريم عبارة عن كتاب تشريع بالدرجة الأولى، ولكنه مليء بمختلف الجوانب العلمية والبلاغية والعقلية التي ينبغي استجلاؤها ومعرفة أسرارها. ولكن هل العقل العربي قادر على أن يكشف ويستجلي ومن ثم ينتج لنا كمية معرفية يستطيع العقل التنظير والتبويب والتقدير ووضع المعايير. إن الدين الإسلامي أقر بمبدإ المساواة بين شعوب الأرض من أجل أن ينشأ مجتمع إنساني متناغم الأفكار ومتجانس الرؤى والتصورات وقادر على أن يتلمس مفاصل الموجودات في الكون، ثم يحاول الإدراك أولا والفهم ثانيا والعلم ثالثا...لقد قال تعالى: " يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ".[1]. ثم أعطى صورة لوجود الإنسان وماهية رسالته؛ والتي تبدأ من محاولة التدبر والمعرفة؛ وهذه الأخيرة تكون باستعمال العقل والتفكير؛ يقول: " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع

---

[1] سورة الحجرات. الآية13.

الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون."[1]. ويقول: " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون"[2]. وإذا أمعنا النظر في مثل هذه الآيات، فإننا نجد أنفسنا أمام تساؤل كبير هو: هل الإنسان العربي صاحب عقل وتفكير؟ أم أنه صاحب بديهة؟ يقول الجاحظ: " وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة، ولا استعانة. وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال عليه المعاني انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده..." [3]. وقد يظهر في كلام الجاحظ شبه إساءة للعرب بأنهم لا يملكون التفكير، ولكن في الباطن نلمس إشادة بالفكر المتقدم لدى العرب والذي تبرزه قوة البديهة وحضورها المستمر؛ وهي تنم عن الإدراك الكبير لما يحيط بهذا الإنسان من موجودات، وإلا كيف يخاطب القرآن العقول لو لم يكونوا أصحابا لها؟ وكيف يحدثهم بلغة هي آية في البلاغة والتفوق الفني لو لم يكونوا ممتلكين لوسيلة اللغة؟ إن اللغة في حد ذاتها خزان للفكر، ووسيلة للتفكير وبالتالي تسير في إنتاج البنى المعرفية... و

---

[1] سورة البقرة. الآية 164.

[2] سورة يونس. الآية 24.

[3] الجاحظ: البيان والتبيين. ج3. ص: 426/425.

خزان للفكر، ووسيلة للتفكير وبالتالي تسير في إنتاج البنى المعرفية... و صاحب كتاب الإمتاع والمؤانسة يورد حادثة تاريخية، يرويها شبيب بن شبة، حيث كانوا في المربد، إذ أقبل عليهم ابن المقفع، وسألهم عن أعقل الأمم؟ فقالوا: فارس.فقال: هم قوم عُلِّموا فتعلموا، ومُثِّل لهم فامتثلوا واقتدوا وبُدئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقالوا الروم: فقال: لهم أبدان وثيقة وهم أصحاب بناء وهندسة. فقالوا: الصين فقال: أصحاب أثاث وصنعة لا فكر لهم ولا روية. فقالوا: الترك. فقال: سِباع للهراش. فقالوا: الهند. فقال: أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة.فقالوا: الزنج. فقال: بهائم هائمة. فرددنا الأمر إليه فقال: العرب. ويكمل قائلا: والله لوددت أن الأمر ليس لكم ولا فيكم ولكن كرهت إن فاتني الأمر أن يفوتني الصواب...إن العرب ليس لها أول تؤمه ولا كتاب يدلها، أهل بلد قفر، ووحشة من الإنس، احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعـــقله، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض فوسموا كل شيء بسمته، ونسبوه إلى جنسه وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه، وأوقاته وأزمنته، وما يصلح منه في الشاة والبعير، ثم نظروا إلى الزمان واختلافه فجعلوه ربيعيا وصيفيا، وقيضيا وشتويا؛ ثم علموا أن شربهم من السماء، فوضعوا لذلك الأنواء؛ وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازله من السنة؛ واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض وأقطارها، فسلكوا بها البلاد؛ وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر، ويرغبهم في الجميل، ويتجنَّون به على الدناءة ويحضهم على المكارم؛ حتى إن الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف المكارم فما يبقي من نعتها شيئا...فلذلك قلت لكم: إنهم أعقل الأمم، لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم. "[1] .إن العقل العربي ينتمي

---

[1] أبوحيان التوحيدي. الإمتاع والمؤانسة. ج1.تحقيق: أحمـــد أمـــين.أحمـــد الـــزين. المكتبـــة

إلى ثقافة مؤسسة على معطيات الواقع مثلما نبه إلى ذلك القرآن، وحضّ على استعمال العقل للمعرفة وللتبين ومن ثم للتدبر الذي يؤدي بالضرورة إلى المعرفة، فاكتشاف العلاقات بين الموجودات يوصل إلى اكتساب فاعلية التمييز والتي هي أساس، وركن ركين لبناء النظام المعرفي.و" ما يميز العقل العربي بوصفه عقل الثقافة العربية الإسلامية، هو أن العلاقات داخله تتمحور حول ثلاث أقطاب: الله، الإنسان، الطبيعة." [1]. ولا شك في أن هناك معالم ثقافية، وملامح إبستمولوجية كانت تسعى إلى إنشاء الثقافة المضادة بهدف تكسير نمط اعتقادي يتمثل في الإسلام؛ أو الإسلام السني، ومنه تحطيم سلطة الخلافة واستبدالها بسلطة أخرى؛ والأمثلة كثيرة ومتعددة منها: التيار الشيعي الذي كان يعمل في الخفاء، وخيـــرمن مثله ومن اجـــــتهد في تأصـــيل معتقداته هو (جعفر الصادق) ومن بين أهم الطروحات التي أسس عليها الفكر الشيعي هي فكرة الولاية باعتبار أن النبوة انتهى أمرها مع الرسول –صلى الله عليه وسلم – وكذلك الإقرار بالعرفان وبأنه الوسيلة الأكثر فاعلية في إدراك حقيقة الدين وباطن القرآن. أما بالنسبة إلى الفرق الأخرى والتي تنتمي انتماء غير عربي مثل فرقة المانوية؛ فقد عمل الخليفة المهدي " على قمع هذه الحركة بجميع الوسائل: فقد أنشأ "" ديوان الزنادقة" لتتبعهم ومطاردتهم، وكانت لفظة "زنادقة " تعني آنذاك المانوية خاصة، وقد بلغت الحملة ضدهم أوجها عام 166هـ حيث نكّل بهم المهدي تنكيلا."[2]. وهكذا فالخلافة الإسلامية وجدت نفسها في

العصرية.بيروت.دت.ص73/72/71.

[1] محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي.ط7. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 1998. ص:29

[2] محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي.ص:224.

صراع مع مجموعة من الثقافات والأفكار؛ فمن جهة ثقافة الفرس بما تحمل من معتقدات باطلة تتنافى مع الإسلام، ومن جهة ثقافة عربية متأثرة بالفلسفة اليونانية ومن جهة أخرى وجود ثقافة باطنية؛ وبتعبير آخر ثقافة مسرفة في الاعتداد بالعقل وثقافة مسرفة في الاعتداد بالروح وثقافة مسرفة في الاعتداد بالدروشة والشعوذة. وفي مقابل هذه الاعتقادات كانت الثقافة المتمثلة في الخلافة تجتهد في إيجاد الحلول؛ وهذه الحلول إما بالسيف، أو بالمجادلة والمناظرة، ومن ذلك ما نجده من التجاء المأمون إلى فكر أرسطو واعتماده أداة لمقاومة " الغنوص المانوي والعرفان الشيعي وهم من طبيعة واحدة، فكلاهما يريد أن يؤسس معارضته للدولة العباسية على سلاح لا يملكه العباسيون الذين يتزعمون الخلافة السنية التي تؤمن بانتهاء وتوقف الوحي نهائيا مع خاتم النبيين والمرسلين."[1]. فالبحث عن الأداة، إذا، كان ضرورة ملحة ولزاما ينبغي الأخذ به وإلا الوقوع في مطبة ضعف المواجهة أو القصور العلمي والمعرفي، خاصة وأن لغة السيف لا تنفع دائما وقد يكون مفعولها عكسيا. " ومن هنا لجأت الدولة العباسية على عهد المأمون إلى العمل على تنصيب هذا العقل في الثقافة العربية الإسلامية وإقامة التحالف بينه وبين المعقول الديني العربي لصد الهجمات الغنوصية التي كانت تهدد ليس فقط العباسيين كدولة بل الفكر الديني الرسمي بشقيه المعتزلي والسني."[2]. والقيمة دائما تكون نابعة من طبيعة الاستعمال؛ ولما كنا أوردنا بأن العرب أمة عقل؛ فينبغي أن نؤمن أكثر أن امتداد هذه الأمة في الزمن الذي جاء بعد الإسلام جعلها تتشبع أكثر؛ وتنسجم مع مجمل التحولات المعرفية التي تتعرض لها الخلافة، والمجتمع بسائر تشكيلاته. " لقد كانت للشاعر

---

(1) المرجع نفسه.ص: 231/230.

(2) محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي. ص: 23.

والفيلسوف محمد إقبال ملاحظة جديرة بالنظر. أوردها في كتابه " التجديد في الفكر الإسلامي "، مؤداها أن محمدا-عليه السلام- كان لا بد أن يكون خاتم الأنبياء، وأن تكون رسالته آخر الرسالات، لأنه جاء ليدعو إلى تحكيم "العقل" فيما يعرض للناس من مشكلات." [1] وبالفعل انبنت العقلية العربية على التوجه المحمدي، وطفقت تتزين بكل ما تحصلت عليه من ثقافات الأجناس الأخرى من دون أن تذوب ذوبان المقلد، بل راحت تلتمس لنفسها مواطن التفاعل، والتحاور؛ ثم بعد ذلك الاستفادة و التكيف. وإذا كنا قد تبينا، في موضع سابق، أن هناك فرقا دينية باطنية خاطبت الروح، ومن ثم نشطت حركة الوجدان والحدس والتأملات الباطنية؛ فإنه أمكننا أن نقول: " لقد تمثلت الثقافة العربية فلسفة أرسطو بكل ما فيها من علم وعقل، بنفس القوة التي تمثلت بها صوفية أفلوطين بكل ما فيها من ركون إلى الحدس بالوجدان. إن الأمر هنا لم يكن أمر جوار، بحيث نجد الفلسفة الأرسطية في غـــرفة وفلسفة أفلوطـــين في غرفة مجاورة لها، بل الأمر أمر دمج ومزج في نظرة واحدة."[2]. وعلى الرُّغم من تمازج الثقافات الذي ميز البيئة العربية خاصة في العصر العباسي، إلا أن خصائص كل أمة هي المتحكم، " لماذا لم تستجب الهند-مثلا- للمنطق الأرسطي استجابة العرب؟ قل في الجواب ما شئت، ولكن جزء من الجواب عندي [والكلام لزكي نجيب محمود] هو أن وقفة العربي من الأمور طابعها العقل، ولو لم يسبقها أرسطو بمنطق يسدد خطاها، لكان حتما على العرب

---

[1] زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي.ط6. دار الشروق. بيروت 1980.ص: 310/309.

[2] زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي. ص: 320.

أنفسهم أن يستخلصوا لأنفسهم تلك الخطى." [1]. والعقل أنتج العلوم والمعرفة، وهذه الأخيرة أنتجت الأفكار، وبلورت المفاهيم و" إن العلوم هي بلا شك مظهر حضاري، فالحضارة هي العلوم والفنون والآداب. كما أن دراسة تاريخ العلوم هي دراسة الحضارة، ودراسة الحضارة تعني دراسة فلسفتها، أي الأفكار التي قادتها ووجهت مسيرتها" [2]. إن مثل هذا التوجه الذي حصل للأمة العربية مرده ميزة الإسلام الذي فتح الآفاق، وحرر الأنفس من براثن الضياع والتحجر...فكانت ميزته الأولى متمثلة في التحفيز على " العلم وطلبه في جميع مظانه، على نحو لا نجد له مثيلا في جميع الأديان الأخرى، وهي أديان تقتصر على الزهد والوعظ والعمل للآخرة، خلافا للإسلام الذي كان نموذجا للجمع بين الدين والدنيا" [3]. وإذا استتب أمر العلم في النفس صفت ونقت وكانت متسامحة ومتحاورة مع ما ومن يحيط بها؛ فلا تكون عدوانية وإقصائية بل تتكيف " فقد احترم الإسلام جميع الأديان التي اتصل بها ولا سيما اليـــــهودية والمســـيحية.

وهناك أيضا التسامح العرقي: فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وهناك أخيرا التسامح الطبقي: فالناس سواسية كأسنان المشط، والعمل الصالح هو الذي يفرق بينهم أمام الله." [4]. وحركة التاريخ البشري، هي حركة اختلاط وتمازج بين مختلف الأجناس والشعوب والحضارات. فالأرض كانت

---

[1] المرجع نفسه. ص: 313

[2] عبد الرحمن مرحبا: انتفاضة العقل العربي.ط1.منشورات عويدات الدولية. باريس 1994. ص: 122.

[3] المرجع نفسه. ص: 125.

[4] محمدعبد الرحمن مرحبا: انتفاضة العقل العربي. ص:125

تستوعب أقواما ويتبدل عليها الأمر بأقوام أخر؛ ومن سكن غربها، نزح نحو شرقها، ومن استوطن جنوبها زحف إلى شمالها." إن القول بوجود فوارق عقلية ونفسية خاصة بين الأجناس والأقوام والشعوب يقتضي القول بوجود أجناس وأقوام وشعوب صافية خالصة ذات دماء نقية لم تمتزج بها دماء غريبة، وبوجود لغات صافية نقية خالية من الدخيل." [1]. فالأمر تبادل واختلاط ولئن كان من الضروريات البيولوجية فهو أيضا من الضرورات الحضارية " فالحضارة إنما تغنى وتتسع بما يصب فيها من تجارب وخبرات بشرية مختلفة، وبالامتزاج البطيء بين الأقوام والأجناس والجماعات في مراكز تتعدد فيها الاتجاهات والمواقف، وتلتقي فيها مدارس وفلسفات وإيديولوجيات متباينة "[2]. وهكذا تتلاقح الأفكار فيما بينها وتتوالد من أثر الاختلاف والتباين شريطة أن تكون معالم الطريق بائنة وواضحة، فيحدث التكوين والإنجاز " إن الفارابي والرازي وابن سينا وابن باجة وغيرهم وإن تحدّروا من أصول شتى وجنسيات مختلفة فإنهم جميعا عرب باللغة المنطوقة والفرص المتاحة والهوية الحضارية والشخصية الثقافية، ماداموا قد نشأوا في جو الإسلام وعاشوا في مناخه وقيمه وتكلموا لغته...لقد كانوا عربا بالإحساس والعقل والروح والمصير والآمال والآلام، وكانوا رسلا للثقافة العربية والفكر العربي والحضارة العربية." [3]. وتلك هي شمولية الإسلام، وعظمة تعاليمه التي ترتفع عن العرقية أو الإقليمية أو التعصب لجنس بشري دون آخر. لقد أنشأ مجتمعا يدعو إلى الانسجام والتوافق بين مختلف الطاقات البشرية

---

[1] محمدعبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي. ط2. ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر 1983.ص:82 .

[2] المرجع نفسه. ص:88.

[3] محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي. ص:117 .

والكفاءات العلمية والحضارية، وإنه قوّض مفاهيم التفاخر والتباهي، والاعتزاز بالنسب أو الأصل حتى سمعنا العرب يقولون: المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ومن حيث يثبت لا من حيث ينبت." إن كلمة (عرب) التي تكاد تقترن دائما بكلمة(إسلام) لا تعني فقط أولئك الذين تحدّروا من أصل عربي فقط، إنها تشمل أيضا جميع الذين خضعوا للسيادة العربية أو شاركوا فيها واستعملوا اللغة العربية للكتابة والتعبير، سواء دانوا بالإسلام أو ناصبوه العداء." [1]. إذ تنتفي النظرة الضيقة التي تغلّب الطائفية والعرقية وتمجد النعرات القبلية وتجعلها المحك الذي تحتكم إليه في شدها ورخائها، وضعفها وقوها، وفي حلها وارتحالها، فالعروبة " ليست العبرة فيها بالمضمون العرقي واللغوي، إنما العبرة فيها بالمضمون الحضاري. ليست العروبة انتسابا إلى جنس بعينه، وإنما هي اشتراك في تجارب تاريخية وعقلية وروحية واحدة. " وكانت اللغة العربية هي البوتقة التي انصهرت فيها الأفكار وتلاقحت العقول، وتأسست البنية العقلية ذات الفاعلية الكبيرة، والتي استطاعت أن تنتج، وتبتكر، وتأتي بالعجب العجاب. إن اللغة ليست مجموعة أصوات وكفى، ولا يمكن أن تكتفي بميزها التوصيلية فقط إذ تتعدى ذلك إلى مجموعة من المزايا؛ إنها المختزلة لفكر الأمم، الخافية للرغبات والمكنونات، والتي تمتزج بالوجدان وتربط بينه وبين عالم الأشياء في الخارج. ومن هذا المنطلق تصبح فاعليتها في كونها أداة التفكير. واللغة العربية سارت في السبيل؛ فوحّدت وزرعت لحمة التماسك على الرغم من الاختلافات العرقية والمذهبية التي وجدت خاصة في العصر العباسي"فليس الذي يكوّن الأمة إذن ويربط أجزاءها ويوحّد شعورها وما تناثر من عقدها ويوجهها إلى غايتها هو

---

[1] لمرجع نفسه. ص:118.

هبوطها من سلالة واحدة أو من أصل قومي واحد، وإنما الذي يفعل ذلك إلى مدى بعيد هو تكلمها بلسان واحد."[1].

إن الجهاز المعرفي الذي تأسس في البيئة العربية كان مع عصر التدوين، " وهو العصر الذي لمس فيه المسلمون الحاجة إلى ضرورة تحصين الإسلام من الخارج بإقامة سياج من حوله، يكون درعا ومجنا يقيه من حملات "الزنادقة"و" الملحدين"؛ كما يحمي القرآن من التحريف واللحن المتفشيين مع دخول الأمم الأجنبية تحت رايته. فدخول عناصر غير عربية في الإسلام، زاد من الشعور بالحاجة إلى تقنين اللغة وإلى صيانة الدين عقيدة وشريعة، باعتبار أن سلامة أحكامه موقوفة على حسن فهم نصوصه وحسن الاستنباط منها." [2]. والصيانة هذه كانت تقتضي حسن التأصيل، الذي أنتج المصنفات الضخمة في الفقه والتشريع من أمثلة الموطأ لابن مالك ت196هـ. والجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ت189هـ.ولئن كان الحقل المعرفي العربي متعدد المناحي العلمية والفكرية إلا أن آليات البحث والاستقراء كانت تندرج ضمن البحث البياني؛ وليس معناه البيان المقتصر على الجانب البلاغي فحسب. " إن ما يميز العلوم العربية الإسلامية. هو أنها كانت علوما تدور حول النص الديني ساعية إلى استثماره في مجالات الشريعة والعقيدة واللغة، لذا كانت علوما بيانية." [3]. والبيان حسب ما يعرفه الجاحظ: " اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحُجُب دون الضمير حتى

---

[1] محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربي. ص: 119.

[2] سالم يفوت: حفريات المعرفة العربية الإسلامية. إبستمولوجيا" القياس". مجلة: دراسات عربية. ع8.السنة: يونيو1985. ص: 83.

[3] سالم يفوت: حفريات المعرفة العربية الإسلامية.ص: 85.

يُفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل. لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع غنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغتَ الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع." [1] وكانت مستويات الدراسة الملتفة حول القرآن الكريم متفاوتة من حيث تأثيرها، ولعل الإمام الشافعي من أبرز العلماء الذين برزوا في الجانب البياني وحاولوا إعطاءه الأهمية القصوى لكشف المعنى القرآني، يقول:"البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع. فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة الاستواء عنده ..." [2]. ومن خلال ذكره للفظ الأصول والفروع يتبين لنا أن الأمر لم يعد مجرد تفسير لكلمة، وإنما أصبح كمّا معرفيا وعالما من الأفكار. وبذلك تغدو المسألة مسألة تنظيم لمنظومة عقلية بدأت تندرج ضمن إطار معرفي، وتحاول أن تبنيه وفق معايير منهجية مضبوطة. لقد حدد الشافعي الأصول انطلاقا من ترتيب درجات البيان القرآني، ووضع الأساس لقوانين تفسير الخطاب البياني، وعدد هذه الدرجات خمسة: أولها البيان الذي لا يحتاج إلى بيان. وثانيها البيان الذي في بعضه إجمال ففسرته السنة. وثالثها البيان الذي ورد في صورة المجمل وكذلك فصلته السنة. ورابعها بيان السنة وهو ما استقلت به هي نفسها ويجب اتباعه. وخامسها بيان الاجتهاد، ويؤخذ بالقياس على ما ورد فيه نص من كتاب أو سنة.[3]. فمسلك القياس

---

[1] الجاحظ: البان والتبيين. ج1. ص: 56.

[2] الشافعي: الرسالة. تحقيق:أحمد محمد شاكر. دار الفكر. دت ص: 20.

[3] محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية ط2. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 1987. ص:23.

هو مسلك عقلي جاء نتيجة التوسع الاجتماعي وظهور مشاكل وقضايا وأزمات لم تكن موجودة أو وجدت على شاكلة أخرى. ونقول إن مشروع التأسيس الثقافي الذي حصل في البيئة العربية آنذاك، كان يتنامى من فئة من العلماء إلى فئة أخرى، ومن عصر إلى آخر؛ فقد كان الجويني مثلا (ت478هـ) يحاول إنقاذ علم الكلام الأشعري مع مشكل الأحوال، وكان ابن سينا(ت428هـ) يحاول احتواء علم الكلام في إلهياته. وكان هناك في الأندلس ابن حزم يروج للمذهب الظاهري.[1]. واستنادا إلى ما سبق، نقول: إن المجتمع العربي الإسلامي انطلاقا من عصر التدوين استطاع أن يكتسب محصلة ثقافية مميزة ومحددة المعالم، بدأت في البداية مع الأعرابي صانع البيئة العربية، وصاحب البداهة، والذي يمتلك في الداخل الاستعداد الكافي لأن يصبح مالكا للأداة والمتمثلة في العقل الذي ينتج ويؤسس ويبني." لقد حكم في التاريخ للثقافة العربية على العقل العربي وعلى الجهد الثقافي العربي، بأنهما بدأا مع ذلك الأعرابي الصحراوي الخشن الذي لا يتقن إلا لغة دققت في كل ما هو بدوي بدائي صحراوي متخلف، وأن هذا البدوي ولغته الخشنة " القاصرة" اللذان كوّنا العقل العربي وما زالا يحكمان تفكير العربي ويتحكمان بتكوينه الثقافي حتى اليوم وبيقيانه أسير لغة وأدوات تفكير وتعبير وتدبير ميتة في تخلفها؟"[2]. إننا أثبتنا أن ذلك الإنسان صنع من بداوته الحضارة، وحفظ لغته، وإن كان جمعه لها قد تم من البادية إلا – مما جعلها فقيرة إلى حد ما من تسميات الإنجاز الحضاري- أنه من واجب كل دارس لهذه الثـــقافة أن يراعي هذا المجال،

---

[1] المرجع نفسه. ص: 513.

[2] علي عقلة عرسان: مشكلات في الثقافة العربية. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1989.ص:24/23.

ويأخذه بعين الاهتمام والعناية، ولكن من دون مغالاة أو تحامل على المسألة؛ فالأمر يؤخذ في إطاره الزماني والمكاني، وفي بيئته الاجتماعية. ولئن كان التخلف حاصلا – مثلما يرى على عقلة عرسان- من جرّاء لغة ميتة لا تستجيب لتطلعاتنا؛ فإن التقصير منا نحن أبناء هذه اللغة، ومن الواجب علينا أن نستعيد عافيتنا اللغوية من خلال السعي نحو تطويرها، وجعلها لغة قابلة لأن تستوعب الإنجاز الحضاري الراهن. إن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا إذا بحثنا في الجذور التي تعطينا مسوغات الاستمرار. دون أن ندخل في متاهات الصراع بين البداوة والحضارة، وتغليب جانب على الآخر. إنما الأمر يجب أن يكون تفاعليا وتحاوريا.

مكتبة الدراسة:

أولا / المصادر:

1/ القرآن الكريم.

ثانيا / المراجع:

1/ **ابن خلدون:** المقدمة.تحقيق: درويش جويدي.ط2. المكتبة العصرية. بيروت 2000. 2/ **ابن عبد ربه:** العقد الفريد. شرح وضبط: أحمد أمين- أحمد الزين- إبراهيم الأبياري. ج3. دار الكتاب العربي. بيروت 1983.

3/ **ابن كثير:** فصول من السيرة. تحقيق: محمد العيد الخطراوي-محي الدين مستو.ط1.مؤسسة علوم القرآن، دار القلم. بيروت 1399هـ.

4/ **أبو حيان التوحيدي:** الإمتاع والمؤانسة. ج1.تحقيق: أحمد أمين.أحمد الزين. المكتبة العصرية.بيروت.دت.

5/ **الجاحظ:** البيان والتبيين. تحقيق: درويش جويدي.ج2. المكتبة العصرية. بيروت 2001.

6/ **الشافعي:** الرسالة.تحقيق:أحمد محمد شاكر.دار الفكر.دت.

7/ **الشهرستاني:** الملل والنحل، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد.ج1.دار الكتب العلمية.دت

8/ **زكي نجيب محمود:** تجديد الفكر العربي.ط6. دار الشروق. بيروت 1980.

9/ عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون.المكتبة العصرية.بيروت2001.

10/ علي عقلة عرسان: مشكلات في الثقافة العربية. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1989.

11/ عمر موسى باشا: من الوجود العربي.دار المعارف للطباعة والنشر. تونس.دت.

12/ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع.ترجمة:عبدالصبور شاهين.ط3. دار الفكر(الجزائر).ودار الفكر(دمشق) 1986.

13/ محمد عابد الجابري: - بنية العقل العربي.دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربيةط2. مركز دراسات الوحدة العربية.بيروت 1987.

- تكوين العقل العربي.ط7. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 1998.

14/ محمد عبد الرحمن مرحبا: - أصالة الفكر العربي. ط2. ديوان المطبوعات

الجامعية.الجزائر 1983.- انتفاضة العقل العربي.ط1.منشورات عويدات الدولية. باريس 1994.

ثالثا / **الدوريات:**

1/ مجلة: دراسات عربية.ع8.السنة: يونيو1985.